كيف ولمـــاذا
سافرت إلى أوربا؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

منذ بضع سنوات — أربع أو مائة، لا أدري! — استقر عزمي على قضاء الصيف في لبنان، فجمعت ما عندي من الثياب القديمة، وحشوت بها حقيبة، وقلت أقضي أياماً في الاسكندرية ثم أبحر منها الى بيروت. وهناك — في الاسكندرية، لا بيروت — لم أدع شركة ملاحة الا دخلت مكتبها واستفسرت من رجالها عن البواخر، حتى الذاهبة الى الهند، ومواعيد وصولها ورحيلها. وكنت أخرج من كل مكتب بحزمة من الأوراق، فيها صور مُغرية وأسعار منفّرة. فاتفق يوماً أن لج وكيل «شركة سيتمار» في تزيين السفر لي على الباخرة «اسبيريا» الى ايطاليا، وكان الوقت ظهرا، وأنا جوعان، فدار رأسي، ووهن عزمي، وكدت أنقده ثمن التذكرة، ولكني تذكرت أن «الجواز» يحتاج الى «تأشيرات» فاعتذرت به وانصرفت

وعدت الى فندق «بوريفاج» في أقصى «الرمل» وكنت مقيماً به، وأسرعت الى مائدتي فجلست اليها، وكنت مهموماً مكروباً موزع النفس، بين لبنان والباخرة «اسبيريا» — أي والله! كأنما كنت سأقضي الصيف كله على ظهرها! — فناديت الخادم وطلبت قليلاً من النبيذ عسى أن يذهب عني الفتور، وملأت الكأس، وتناولتها، ورفعتها الى فمي، فسمعت من ورائي — صوتاً ناعماً رخيماً يقول:

«المازني — هذا — حشرة!»

فارتدت يدي عن فمي، وهي ترعش، وسالت عليها قطرات من النبيذ، ومضى الصوت الحلو يفري أديمي:

«حشرة حقيرة — يجب سحقها بالأقدام.»

فتلفت مذعوراً وقد خيل الي أن العيون كلها صارت علي، وتمنيت لو أن إدارة الفندق تحرم الكلام على الطعام، أو تجيء بموسيقى فتغرق في أنغامها العالية القوية هذه الأصوات الحلوة! ولكن الكلام لم يكن محظوراً، ولا موسيقى هناك، فسمعت مكرها:

«سكير لا يفيق، ومعربد لا يرعوى»

فقلت في سري «يا خبر اسود؟! أنا سكير لا أفيق؟؟ أنا عربيد؟؟» ودهشت، ولو أن رجلا كان يزعمني كذلك لما — حفلت نفسي ماذا يقول عني، ولكنها فتاة — فتاة على التحقيق.. صوتها وحده دليل على ذلك — تذكرني بلهجة المحنق، كأنما كنت قد قتلت أباها، — قاتله الله على أي حال! — وكان الخادم قد وضع أمامي شَبّوطة[1] مغرية، ولكن نفسي انصرفت عنها وزهدت فيها، فاضطجعت وأنا أعجب للذين يؤاكلون هذه الفتاة لماذا لا يتكلمون؟؟ وما لهم لا يغيرون هذا الموضوع

«رجل مستهتر، لا يبالي ماذا يقول عن نفسه، ويظن لسخافته أن هذا من الظرف» فلم أعد أطيق هذا الطعن، واشتهيت أن أكتم أنفاسها بالفوطة، ولكني طويتها — أعني — الفوطة — ووضعتها على المائدة وهممت بالقيام، فسمعتها تقول:

«على كل حال ماذا ننتظر؟ إن «اسبيريا» تسافر بعد غد، واذا لم نشتر التذاكر غدا تأخرنا وفاتتنا...»

وتسللت، كاللص، ولكن بعد أن خالستها النظر ورأيت وجهها، من غير أن تراني، وكانت مع الأسف جميلة. فزاد عجبي، فان الحسن رِيٌّ ولينٌ، وهذه الفتاة تحمل لي في جوفها ركاماً فاتراً بالسخط والنقمة وكل ماينافي معاني الجمال. فقرضت أضراسي وأقسمت لأسافرن على هذه الأسبيريا لأرى آخر هذه الحكاية —

وأقبل الليل، وكنت أتمشى في حديقة الفندق، وحدي، كما لا أحتاج أن أقول، وكنت لا أزال أحدث نفسي بما سمعت من أوصافي، وكان صدري كالحضم المضطرب، وكان الخدم يروحون ويجيئون في أرجاء الحديقة تلبية لنداء المنادين أو تصفيق المصفقين، وكان الأطفال يجرون هنا وههنا، وأنا ذاهل عن هؤلاء وأولئك جميعاً بالحجارة التي سكت سمعي على الطعام، فكنت أخطو خطوات، وأقف وأقول لنفسي:

(١) الشبوط والشبوطة سمك عريض ذيله دقيق

« حشرة . . . ! »

فقال صوت « أفندم ؟ »

قلت — غير عابئ به أو جاعل بالى إليه — «حشرة حقيرة .. تستحق السحق بالأقدام » واستأنفت السير ، أو الخطو ، وتركت الخادم — فقد كان أحد الخدم — يسخط ويلعن ، أو لا يدرى هل يضحك أو يغضب

وإنى لفى ذهولى هذا ، وإذا بصرخة خافتة ، فالتفت مسرعاً إلى مصدرها ، فبصرت بفتاة حانية على غصن مريج علق به ثوبها ، فوثبت إليها وأعنتها على تخليص الثوب ، ولكن بعد أن تخرّق

وقلت وأنا أنفض التراب عن كفى وأشير إلى الثقوب الظاهرة فى ثوبها :

« ليس هذا ذنبى . . إنه ذنب البستانى المهمل الذى يربى هذه الأشواك ليزين بها الطريق ولا يعنى بتقليمها . . . . »

فقالت : « على العكس . . . إنى شاكرة لك نجدتك ، ولولاك لصار الثوب فى يدى هلاهيل ... فأنا مدينة لك ... »

فرفعت عينى إليها فاذا بهـا هى التى سلفتنى على المائدة بلسانها وحرمتنى لذة الطعام وأنا جائع أتضور ، فارتددت عنها مقدار خطوة ونحت عن صدرى آهة مخنوقة :

فقالت وهى تدنو منى :

« ماذا بك ؟ »

ورأتنى أتكلف الابتسام فقالت : « بالدور . . . أنت مرة وأنا مرة »

فقلت : « لا شىء . . . لاشىء . . . »

فألحت « ولكن ماذا بك ؟ »

قلت : « أوه ... لا شىء ، لم أكن أحسب أنك أنت ... »

فقالت مستغربة : « ولكن بالطبع أنا أنا . . . »

قلت : « طبعاً . طبعاً . إنى سخيف »

قالت « هل تعرفنى ؟ »

قلت : « أعرفك ؟ الجواب نعم ولا »

قالت : « كيف يمكن هذا ؟ ماذا تعرف عنى ؟ »

قلت : « أقل مما تعرفين عنى »

قالت : « لا مؤاخذة ، ولكنى لا أعرف عنك شيئاً »

قلت : « صحيح ! ؟ »

قالت : « بالطبع صحيح ! إنى لم أرك إلا الساعة »

فتنهّدت وانحطّ عن صدرى حجر ، وقلت : « الحمد لله ! ، ياما أكرمك يارب ! »

فقالت : «ولكن لماذا تتكلم هكذا ؟ لست أفهم شيئاً ...»

قلت : « أحسن »

قالت : « هل معنى هذا أنك تخشى أن أعرفك ؟ »

قلت : « جداً جداً جداً ! »

فضحكت وقالت « هل أنت مجرم هارب ؟ »

قلت : « شر من مجرم ، ويودى لو أستطيع الهرب ولكن إلى أين ؟ كلا . لست مجرماً ولكنى حشرة ! »

فصاحت « إيه ؟ حشرة ! »

قلت : « أى نعم . حشرة حقيرة . . . »

فوضعت راحتها البضة على كتفى وقالت : « لاتتكلم هكذا ! هل أنت مريض ؟ »

قلت : « نعم . نعم . نعم . »

قالت : « مسكين ! ماذا بك ؟ »

قلت : « أذنى . . . أذنى . . . آه من أذنى »

والصبية أنى كنت أبتسم ، فقد راقنى هذا الموقف على الرغم مما أجن من الحقد على الفتاة ، فأقبلت علىّ ، وجعلت تهوّن من أمر أذنى وتشير علىّ بأن أضع فيها قطرة أو قطرتين من «الجليسيرين» ، وأن أبلع قرصاً من «الأسبيرين» فشكرتها وافترقنا

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، مررت « بقلم الجوازات » وبدار « القنصلية الايطالية » ، ثم استخرت الله وذهبت إلى مكتب « شركة سيتمار » ، وطلبت تذكرة على الباخرة « اسبيريا » وإذا بالفتاة تقول لى :

« وأنت أيضاً مسافر عليها ؟ »

قلت : « نعم . هل هناك بأس ؟ »

فضحكت وقالت : « كيف أذنك اليوم ؟ »

قلت : « أذنى ؟ آه ! صحيح ! تطن »

قالت : « يظهر أنها شفيت . . . »

فهممت بأن أقول شيئاً ولكن الرجل سألني عن اسمي ، ولم أكن أتوقع هـذا ، فهبط قلبي إلى حذائي ، ونظرت من الفتاة إلى الرجل ، ومن الرجل إلى الفتاة ، وقلت :

« اسمي ؟ ولكن هل هذا ضروري ؟ »

فقال « لا . . . ولكن يحسن . . . إن أسماء الركاب تكتب وتوزع على الباخرة »

وكنت قد أنقدته قبل ذلك ثمن التذكرة ، فلولا هـــذا لعدلت ، فقلت :

« اسمي ؟ اسمي ؟ أظنه . . ابراهيم . . نعم . . ابراهيم عبده »

وقالت الفتاة ونحن خارجان :

« هل هذا اسمك الحقيقي ؟ »

قلت : « هل تعرفين اسمي الحقيقي ؟ »

قالت : « لا . . . إذن هذا اسم مستعار ؟ معذرة إذا كنت أتطفل . . . »

قلت : « لا لا . . . ليس اسماً مستعاراً . . . انه اسمي من الآن فصاعداً »

فهزت رأسها وقالت وهي تبتسم : « ليس لي حق ، هذا فضول لا يغتفر . . . سامحني »

فقلت : بلهجة الجد الصارم « أسامحك ؟ كلا ! أبداً . . . أبداً . . . »

فتعجبت ، ولها العـذر ، وقالت : « هل أسأت اليك بشيء ؟ اني آسفة ! »

قلت : « أسأتِ ؟ أسأتِ فقط ؟ لقد قتلتني يافتاتي ! »

قالت : وهي تدير وجهها لترى وجهي

« أتمزح أم تتكلم جاداً ؟ »

فواجهتها وقلت : « هل تعرفين أني أمزح ؟ ؟ كلا ! أعني نعم . قتلتني . . . طعنتني هنا » (وأشرت إلى موضع القلب)

فضحكت وقالت : « بهذه السرعة ؟ ! إنك حساس جداً »

قلت : « نعم . جداً . فاتقي أن تدوسيني بقدميك . . . »

قالت : « ولكن لماذا أدوسك بقـــدمي ؟ لست أفهم كلامك . . . . »

قلت : « لأني حشرة . . . »

قالت : « أوه ! لاتقل هذا .. لماذا تشتم نفسك هكذا ؟ »

قلت : « نعم حشرة ، وحشرة حقيرة أيضاً . . »

قالت : « أوه ! إنك تضجرني بهذا ار . . . »

قلت : « وسكير عربيد . . . . »

فوقفت في الطريق وصاحت

« أهو أنت ؟ »

فقلت — مقلداً — : « بالطبع أنا أنا »

قالت : « وسمعتني ؟ »

قلت : « كل كلمة . . . خرقت أذني كالسهام المحمى »

قالت : « إني آسفة . . . جدا . . . وأعتذر »

قلت : « آسفة ؟ همم . وأنا أنفلق ! لا بأس . هيا بنا . . . »

قالت : « لقد تعمدت ذلك . . . »

فصحت بها : « إيه ؟ كان هذا كله الى الآن تمثيلاً ؟

قالت : « نعم قلت ماقلت عمداً . . . عرفتك من وجهك ومن . . . لامؤاخذة . . . من رجلك . . ولكنك تؤثر الوحدة ولاتبالي الناس وتتقي أن تكلمهم ، بل تهرب منهم ، فماذا أصنع غير ذلك ؟ »

قلت : « كنت تستطيعين أن تمدحيني مثلاً فأسر . . . أم هذا حرام ؟ »

قالت : « والآن ألا تعفو عني ؟ »

قلت : عفونا ياستي ! بعد أن غرمنا ثمن تذكرة الى أوربا بلا داع !

قالت : « إيه ؟ »

قلت : « نعم . كنت مسافرا الى لبنان ، فلما سمعت منك بعض الحقائق . . . »

فاحتجت : « لاتقل الحقائق . . . »

« أردت أن أعرف البقيـة . . . فقد أوصانا سقراط أن نعرف أنفسنا »

فوضعت كفها على فمي

فلم أقبلها — أعني كفها — ولكني عضضتها عضة مغيظ ، ولم أبال صراخها في الطريق ما؟

ابراهيم عبد القادر المازني